



# تولستوي

## وتصوير العالم الداخلي للإنسان \*

بقلم الدكتور حياة سارة

التحليلية هو تشرنيشفسكي ، فقد سماها « دياكتيكية النفس » وهي تختلف عن غيرها بان « تولستوي لا يقتصر على تصوير نتائج سير العملية السيكولوجية وانما يرسم بمهارة فائقة خط مسار العملية النفسية كلها ويلتقط للحظات العابرة في الحياة الداخلية التي تتعاقب واحدة بعد واحدة في سرعة فائقة وتباين متواصل » . (٢) لم يكن يستطيع تولستوي الفوص في اعماق النفس البشرية وكشف اسرارها لولا معرفة شاملة دقيقة لتصرفات الانسان والبواعث التي تحركها والاتجاهات التي تسلكها افكاره ومشاعره والتقلبات التي تطرأ عليها وتحولها اليادائم المستمرة وقد تسنى لتولستوي فهم تحركات النفس البشرية بعد تأمله سلوك الناس الذين حوله واولى عناية فائقة لفهم ذاته وتحليل افكاره ومشاعره ومراقبة تغيراتها واعطاء تفسيرات لها . وقد كتب في يومياته في ١٢ أيار ١٨٥٧ يقول « انني اهتمم بتأمل نفسي للغاية » .

لا يقل فهم تولستوي للواقع الروسي عن معرفته للانسان ، ففقد حظيت الحياة الروسية ومشاكلها وتاريخها البعيد والقريب باهتمامه ودراسته واستطاع الايام بها من كل جوانبها وابعادها . ولا غرابة ان يثير نفاذ تولستوي للواقع الروسي اعجاب دوستوفسكي واطراءه ، فقد كتب في احدى رسائله يقول : لقد خرجت بنتيجة قاطعة وهي ان الاديب الفنان يجب ان يعرف الواقع الذي يصوره ( الماضي والحاضر ) فسي غاية الدقة ويلمع في هذا المجال عندنا على ما اعتقد اسم الكونت ليف تولستوي فقط » (٣) .

كيف يصور تولستوي الانسان وما يحيطه ؟ وما هو التجديد الذي ادخله في تصويره ؟ ينظر تولستوي الى الانسان كمخلوق متغير متطور ابدا فهو في صيرورة مستمرة وتحرك دائم ، ولذلك كان من الخطأ رؤية صفات الانسان وخصاله كشيء ثابت جامد فشخصيته معرضة للتغيير تحت تاثر الوسط الاجتماعي من جهة وتفكيره وادراكه من جهة اخرى . ويقول في يومياته في ٣ شباط ١٨٩٨ « من الخطأ المتعارف عليه تقسيم الناس الى طبييين واشرار اغبياء واذكياء ، ان الانسان في جريان مستمر ويحمل في ذاته جميع الامكانيات ، فقد يكون غبيا ويصبح ذكيا ، ويكون شريرا ويقدم طبييا والعكس بالعكس . وهنا تكمن عظمة الانسان » .

كان الكتاب السنتمنتاليون والرومانتيكيون اول من اتجه نحو تصوير العالم الداخلي للانسان واعطاء اهمية كبيرة لمشاعره وعواطفه وافكاره . دعا الرومانتيكيون الى الحرية الشخصية وحرية الابداع الفردي والى الاهتمام بمشاعر الفرد ودفائن نفسه . وكما قال الناقد الروسي بيلنسكي « ان الرومانتيكية بمعناها الدقيق هي العالم الداخلي للانسان والحياة الوجدانية الخفية » . (١)

اغنى الكتاب الروس الواقعيون اسلاف تولستوي تصوير حياة الانسان الداخلية بالتفاتهم الى العرى القائمة بين الانسان والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه والتأثير المتبادل بينهما والخيوط المتشابكة التي تجمعهما . وقد كان اهتمامهم في استبطان العالم الداخلي للانسان متفاوتا . فيوشكين لم يتوغل في استكشاف اسرار النفس البشرية كما فعل تولستوي فيما بعد . فقد انتج بوشكين الوانا ادبية جديدة فسي الادب الروسي كالفنسة والرواية وقد وضع نصب عينيه تطوير الاسلوب القصصي والاهتمام بالشخصيات ومحاور القصص وحبكتها وغيرها من القضايا الادبية . اما ليرمنتوف . فان تصوير النفس البشرية يستحوذ على اهتمامه الرئيسي وهو يعالجها في الاطار الاجتماعي ويعالج تفاعلها وارتباطها به . ويظهر ليرمنتوف بتشديد قبضة المجتمع على الانسان وقتله لطافته وقابليته من خلال ابراز تصرفات البطل واعماله وآماله واوجاعه النفسية وهذا ما نلمسه في رواية « بطل عصرنا » . وعلى الرغم من تقصي تورجينف لحياة البطل الداخلية فان اهتمامه الرئيسي ينصب على اظهار التغيرات الاجتماعية والافكار والمذاهب الجديدة التي اخذت تظهر في المجتمع . وقد اتفقد طريقة تولستوي في تحليل نفسية البطل واخذ عليه ميله الى الاسهاب احيانا .

ان اسلوب تولستوي في تقصي الحياة الداخلية للانسان اقرب الى ليرمنتوف منه الى بوشكين وتورجينف . فكلاهما يولي اهتمامه لتصوير عالم الانسان الباطني اكثر من تصوير البيئة والوسط .

لم يكن تولستوي اول كاتب يتوجه نحو تحليل العالم الداخلي لابطاله فقد سبقه في هذا الضمار كتاب روس واجانب معروفون مثل ليرمنتوف وتورجينف ومستاندارد وستيرن وديكنز وغيرهم . بيد ان تولستوي اغنى تحليل العالم الداخلي للانسان باضافات فنية جديدة والناقد الذي تعود له فضيلة السبق فسي تحديد طريقة تولستوي

٢ - ن تشوينشفسكي . المؤلفات الكاملة . موسكو - ١٩٢٧ - ج٣

- ص ٤٢٣ .

٣ - ف. دوستوفسكي . الرسائل ١٨٧٢ - ١٨٧٧ - موسكو -

ليننغراد - ١٩٣٤ - ص ٢٠٦ .

\* القيت هذه المحاضرة في جمعية الكتاب والمؤلفين : العراقيين .

١ - ف. بيلنسكي . المؤلفات المختارة . موسكو - ١٩٤٨ - ج٣

- ص ٢١٧ .

لقت آراء تولستوي في الخلق الفني انعكاساً لها في رواياته وأعماله الأدبية الأخرى . إذ كان يحافظ دائماً على رسم الخط الذي يسير فيه تطور الشخصية الفنية والعثرات التي تعترضها . لقد اتسمت كتاباته الأولى بالإسهاب في كشف مشاعر البطل وخواطره التي تتخذ أحياناً طابع الإطناب . وقد عاب عليه النقاد المعاصرون هذه الناحية واعتبروها أداة تضعف قيمة خلفه الفني . فقد قال الكاتب أكسكوف عن قصة « الأطفولة والصبا » « أن الوصف في بعض الأحيان غير محتمل ويصل إلى حشد التطويل المصطنع » . (٤) وقد افساد تولستوي من ملاحظات النقاد وانتقاداتهم وحاول الأخذ بهما وتجنب الإطالة كما حاول أسباب روح الاعتدال على أسلوبه . فقد كتب في يومياته عام ١٨٥٢ يقول : « لقد شغفت في البدء بالتعميم ثم بالتطويل ، وإذا لم أجد حداً وسطاً ، فإني أدرك أهمية ذلك على الأقل وأتمنى أن أجد » . وقد استطاع تولستوي التخلص من الإسهاب في وصف مشاعر البطل وأفكاره في أعماله الأدبية التي اعتبرت الفترة المبكرة من إنتاجه الفني « كالحرب والسلام » و« أنا كارنينا » و« البعث » وغيرها .

وسانتقل الآن إلى تحليل بعض الأدوات الفنية التي استخدمها تولستوي لكشف شخصية البطل وأفكاره كالتولج الداخلي والصورة الفنية والإحلام والطبيعة .

التولج الداخلي عبارة عن مناجاة البطل لنفسه والتفكير بمختلف الأحداث التي تقع في حياته وهو يحاول تحليلها وإدراك دلالتها . ويستخدم البطل التولج الداخلي لكشف خبايا نفسه والتحدث عنها بصراحة دون مواربة أو تغطية . ولذلك كان التولج من الوسائل الفنية الهامة في كشف حقيقة البطل . أنه يسكب ما بداخلة من أفكار ومشاعر بحرية ويعرضها بصدق تام ، كاشفاً كل البواعث والخواطر والمخبرات التي تكمن وراءها . ولما كان التولج الداخلي ممنازاً عن الحديث أو الكلام العادي بالصدق والأمانة فقد أصبح أداة حيوية في استبطان العالم الداخلي للإنسان .

يختلف تولستوي عن بقية الكتاب باستعماله الواسع للتولج الداخلي في رواياته . أنه يلجأ إليه ليعكس أفكار أبطاله الذين يعيشون حياة فكرية غنية وحياة عاطفية جياشة . فاستخدامه مرتبط بأهمية البطل ودوره في الرواية . وقد اشارت الناقدة الروسية مايتلوا إلى إبداع تولستوي في هذا المضمار بقولها : « ينحصر إبداع تولستوي باستخدام الحوار الداخلي استخداماً واسعاً بدرجة أكبر بكثير من أسلافه وهو أول من عكس الحوار الداخلي بشكله الطبيعي بكل ما فيه من اندفاع وتوقف وإغلاط » . (٥)

لفت ف. ستاسوف الأنظار إلى الخصائص التي ينفرد بها التولج الداخلي عند تولستوي في اختلافه عن سبقه في الأدب يقول : « يبدو لي أن ليس هناك أصعب من التولجات في أحداث الشخصيات الروائية . والإدباء يختلفون عادة حول هذه النقطة ويؤرونها أكثر مما يؤرون أي جزء آخر من كتاباتهم وأنهم يلقون بصورة أدبية متفق عليها ويمكن القول عنها بأنها أكاديمية . أنا لا نعثر عند هؤلاء الكتاب على الصدق والعفوية والإغلاط والجمال المنقطع وعدم اكمال الجملة والطفرة ، فإن جميع الكتاب بمن فيهم تورجينف ودوستويفسكي وجوجل وبوشكين وجربايندوف يكتبون متولجات صحيحة ومتتابعة ومصفولة ومنتقاة ولكن الإنسان لا يفكر بينه وبين نفسه بهذا الشكل وقد وجدت لحد الآن شخصاً واحداً يمكن أن يستثنى من هذا السرب وهو الكونت إيف تولستوي . أنه الوحيد الذي كتب في رواياته ومسرحياته متولجات

حقيقية تشوبها الإخطاء العفوية والانقطاعات والوثبات » . (٦) أغنى تولستوي التولج الداخلي بمحتوى جديد ووسع مهمته ودوره في نسيج الرواية وأعطاه شكلاً جديداً لم يكن موجوداً من قبل . فهو يسرده بشكله الطبيعي المتداعي ويسبغ عليه من العفوية والتلقائية ما يجعله مطابقاً لتفكير الإنسان الحقيقي . أن هذا التجديد الذي أدخله تولستوي على التولج الداخلي والصفحة الواقعية التي أضفاها عليه لا يعينان أن التولج الداخلي هو ابتكار فني أبدعه تولستوي . أن التولج الداخلي كان معروفاً قبل تولستوي كأحدى الأدوات الفنية المستخدمة في الأدب لفرض تقصي مشاعر البطل سواء كان ذلك في الأدب الروسي أو العالمي . ولكن إبداع تولستوي يتعلق بشكل ومحتوى التولج ، أنه عند ستنديل مثلاً يتكون من الأفكار الجاهزة والتناسج المنطقية التي توصل إليها البطل ، فستنديل لا يروي حديث البطل منذ بدء تكوينه وراثته وانسابه ، بل يأخذ المرحلة النهائية والأخيرة منه في شكله الناضج .

لا يقتصر التولج الداخلي على عكس الحالة النفسية للبطل ، بل يتجاوزها إلى أبعد من ذلك . فالتولج الداخلي يفدو أداة لكشف تطور البطل الخلفي وأصلح ذاته وتبيان حصيلة جهوده وإدراكه الجديد للأمور وخطته ومشاربه للمستقبل والتحويلات التي طرأت عليه ومرآحله تطوره . وبكلمة أخرى أن حياة البطل كلها تجسد تعبيراً لها في التولجات .

يمكن أن ينبثق التولج في أية لحظة من حياة البطل ، سواء كان ذلك في ساعات الراحة أو القلق أو الإثارة أو التمتع . ولكن كثيراً ما يستغرق البطل في الحديث مع نفسه في الأوقات الحرجة من حياته عندما تواجهه مواقف معقدة تحتاج إلى تمحيص وإلى حل حكيم موزون ، فعندها يفكر في أفضل السبل لبلوغ ذلك والخروج من المصاعب التي تعترضه وكيفية تذليلها ، ولذلك نراه يقابل ويحلل مختلف وجوه القضية ويقبلها من جوانبها المختلفة مستفيداً من الخبر والاستنتاجات التي كسبها أبان حياته السابقة .

وسع تولستوي إطار التولج الداخلي واكسبه آفاقاً أبعده ، فلم يعد التولج الداخلي مقتصرًا على الأبطال الرئيسيين بل تعداه إلى الأبطال الثانويين أيضاً لأن تولستوي ينطلق من الواقع الحي ذاته الذي يرينا أن كل إنسان بمختلف شؤونه يتأمل الأحداث التي تمر به . أن الأبطال الرئيسيين ينفرون أكثر في ذواتهم وخواطرهم نظراً لنموهم الفكري واغتناء عالمهم الداخلي ونضجه ولذلك نلاحظ وفرة الحديث الصامت عند أندريه بولكونسكي وبير بيزوخوف في رواية « الحرب والسلام » وعند ليفين وأنا كارنينا في رواية « أنا كارنينا » وعند نيخودوف في رواية « البعث » وغيرهم من الأبطال الرئيسيين .

تنقسم متولجات كل بطل حسب طبيعة تفكيره وأماله ومطامحه ، فالمتولجات لا تحمل صفة العموم والشمول بل تحمل الطابع الفردي لكل بطل وهي لذلك تؤدي مهمة الإثارة لشخصية البطل وإلقاء ظلال عليها وإبراز الميزات الخاصة بها ، فتكثر عند أندريه بولكونسكي متولجات المناقشة الفكرية والمنطقية المتسلسلة وبمناز بوضوح التفكير ودقته وتظهر متولجات كارنين بروده ومناقشته للأمور بهدوء وانطلاقاً من قواعد ثابتة يتبعها في حياته ، وعلى العكس من ذلك متولجات أنا كارنينا تمتاز بالصراع والانفعال والتوتر والغضب بينما تلمس في متولجات ستيفا بولونسكي اللامبالاة وعدم الجدية والطميش ، فشعاره « عش ليومك » .

يستغرق البطل في الحديث مع نفسه عندما يكون على اعتاب مرحلة جديدة من حياته يحاول تبين أبعادها وتأملها والتعود عليها وفقه عنها ، ولهذا السبب يطرح مجموعة من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة

٤ - مجموعة مقالات حول مؤلفات تولستوي . القسم الأول -

موسكو - ١٩٠٣ - ص ٥٦ .

٥ - ت. ماتيلوفا . الرواية الأجنبية اليوم - موسكو - ١٩٦٦ -

ص ٢٧٨ .

٦ - ليف تولستوي و ف. ستاسوف . المراسلات ١٨٧٨ - ١٩٠٦

- ليننغراد - ١٩٢٩ - ص ٢٦٥ .

وكثيرا من علامات التعجب والاستيحاءات . ففي رواية « الحرب والسلام » تحاول ناتاشا بعد خطبة اندريه بولكونسكي لها ان تبصر معالم حياتها الملبلة وتكاد لا تصدق انها ستصبح زوجة لاندريه ، انه حلم جميل لا حقيقة واقعة ، وتحدث ناتاشا نفسها قائلة « احقا اننا تلك الصبية الطفلة كما يسمونني ، احقا ساكون من اللحظة الحاضرة زوجة على قدم المساواة لهذا الانسان الغريب الذكي اللطيف الذي يخترمه والدي ؟ اصحيح ان هذا واقع وحقيقة ؟ وان عليّ ان لا امزح بعد اليوم مع الحياة ؟ لقد غدوت الان كبيرة وعليّ الان مسؤولية في كل كلمة انطق بها ؟ » ونلاحظ ناتاشا تكرر كلمة « الان » مؤكدة لنفسها ببدء حياة جديدة لا تعرفها مفعمة بالقييات وانها صارت فتاة ناضجة وعليها ان تتحمل المسؤولية وتواجه المشاكل واعباء الحياة الزوجية .

بخلاف رواية « الحرب والسلام » يغلب التوتر والانفعال على منولوجات « آنا كاريننا » انها تهم في اداء الجو القلق المضطرب الذي يخيم على الرواية والوضع التراجيدي الذي يعيشه الكثير من أبطالها . وهي اقل عددا من منولوجات « الحرب والسلام » واكثر تركيزا ، وتقوم ايضا بدور تحديد الصفات الفردية للبطل وابرز خصائصه الذاتية كما في « الحرب والسلام » . ويبلغ التوتر اقصاه في منولوجات بطله الرواية فتتخذ طابعا محموم النبرة حادا او تسودها الحيرة والارتباك والقلق ولا سيما في القسم الاخير من الرواية . اذ يتجسم امام آنا كاريننا المستقبل الرهيب الذي ينظرها فان حبيبها فرونسكي لن يبقى معها وسوف يتركها في يوم ما وحيدة تتجرع غصص المرارة وتندب حظها النعس ، ولم تكن لتحتفل مثل هذا المصير البائس ، ولذا قررت المحافظة على فرونسكي مهما كان الثمن . وتعكس في المنولوج الاخير حالة آنا النفسية المضطربة وافكارها المحومة وهياجها وغذابها القاتل فهي تركب العربة دون ان تقرر الى اين تذهب عندما كان فرونسكي عند والدته لا يعبر اي اهتمام للوعتها والامها المستعرة . ان محور تفكيرها يدور حول فرونسكي ولا تستطيع التركيز على شيء آخر عداه . وحتى افكارها حوله متضاربة متناقضة مشتتة تفقد المنطق والترابط فيما بينها . فنسمعا تقول « سوف اتوسل اليه ان يصفح عني وساخضع له واعترف اني مذنب امامه ، لماذا لا استطيع العيش بدونه ؟ » وقبل الاجابة على هذا السؤال اخذت تقرأ اليافطات ويتأرجح تفكيرها بين فرونسكي ومظاهر العالم الخارجي فتبدأ تقرأ « دائرة .. مستودع .. طبيب اسنان ، اجل ساحت دولي بكل شيء فهي لا تحب فرونسكي . سيكون مخجلا ومؤلا ولكني ساقص عليها كل شيء ، فهي تحبني وساتبع نصيحتها ولن استسلم له . آل فيلييوف ، سمائط ، يقال انهم يجلبون المعجين الى بطرسبورغ ، ان حياة موسكو ممتازة » . ان توزيع تفكيرها وجنوحه وعدم تناسقه يعبر عن حالتها المتأزمة ، وعن اقتراب الكارثة التي تنتظرها ، فافكارها مشوشة ومربكة وسريعة التحول وتتسم بالفوضى والاضطراب واللبلة وفقدان الهدف والاستعداد لارتكاب اية حماقة او عمل اهوج . وبعد ان فقدت حبه وتهاوت جميع الركائز التي بنت عليها حياتها بقي امامها الرجوع الى زوجها ولذا قررت مواصلة الصراع مع فرونسكي حتى النهاية مهما كلفها الامر . وكانت احيانا تفكر في الانتقام منه بعد ان فقدته وترى « ان الموت هو الوسيلة الوحيدة لاستعادة حبه لها ومعاقبته والانتصار عليه في هذا النضال الدائر بينهما والذي زرعه روح شرير في قلبها . وقد تصورت ذلك بجلاء تام . وطفقت تفكر بتلذذ كيف يتعذب ويتوب ويحفظ ذكراها بعد فوات الاوان » . وترمي آنا نفسها تحت عجلات القطار وهي في حمى افكار الانتقام من فرونسكي .

يصفني تولستوي في رواية « آنا كاريننا » صفة الحديث مع النفس لا على الناس فقط وانما يتعداها الى الحيوانات ، فهم مثل البشر يمكنهم ان يفكروا ويدركوا ويناقشوا ويفهموا ما يقال لهم وان يملكوا تصوراتهم الخاصة عن افعال اصحابهم . فتولستوي يرى ان كل ما في الطبيعة يملك حاسة الادراك والفهم ولا ينحصر ذلك بالانسان وحده . ومن هنا كانت تفكر كلبه ليفين المسماة « لاسكا » اثناء الصيد بافضل

السبل لاقتناص القنينة وتختلف مع ليفين في الاتجاه الذي يطلب اليها التحرك فيه ( فكرت لاسكا « كيف يمكنني الذهاب ؟ والى اين اذهب ؟ فهنا اراهم احسن واذا تركت مكاني فستضيع علمي الامور ولن اعرف امكنتهم » ) ولكن ليفين دفعها في الانثناء متمتا بانفعال « تحركي للاستكشاف ! تحركي » فكرت قائلة « اذا كنت تريد هذا ، فساقفل ولكنني لست مسؤولة عما سيحدث » وانطلقت بسرعة الى الامام .

تعبّر صورة البطل بما فيها من ابتسامات ونظرات وايماءات وحركات عن مشاعره وافكاره ، فبواسطتها يمكن ان نستشف اسرار نفسه وكوامنها . وقد اشار تولستوي في قصة « الصبا » الى اهمية لفة الصيون والابتسامات ، وقال في ذلك « من لم يلحظ العلاقات الخفية الصامتة التي تظهر في ابتسامات خفيفة او حركة او نظرة يتبادلها الناس الذين يعيشون سوية كالاخوة والاصدقاء والزوج والزوجة والسيد والسيدة خاصة عندما لا يكونون صريحين ! كم من الامنيات المكتومة والافكار والخوف من الصراحة تعبّر عنها نظرة عابرة عندما تتلاقى الصيون خجلى مترددة ! » .

يطرق تولستوي سبلا مقابرة لاسلافه ومعاصريه في رسم الصورة الفنية كشانه في المجالات الاخرى . وتظهر اصلته وابداعه في اعطاء صور ديناميكية حية لشخصيات القصة تستمد شكلها من الحالة النفسية للبطل وتلون بلون مزاجه . وفي ذلك يظهر اختلافه عن بوشكين وجوجل وليرمنتوف . فعلى الرغم من تباين اساليبهم في النقاط الصورة الفنية نجد ما يؤلف بينهم ويجمعهم باعطاء صورة ثابتة للبطل وعدم تحركها او عكسها لعالمه الداخلي في لحظات متباينة متناقضة . ولذلك لا تقوم الصورة الفنية عند تولستوي بتحديد مظهر البطل الخارجي واداء العلامات الفارقة والمميزة له فقط وانما تلعب دورا هاما في عكس تطور شخصيته وتبسيط الاضواء على حياته وعلى اللحظات الحرجة التي تمر به والتغيرات التي يتعرض لها . اما الصورة الفوتوغرافية الثابتة فقد افاد منها في رسم معالم الشخصيات العابرة التي لا يتركها تمر تحت يراعه دون الامساك بالصفات العامة التي تتميز بها على الرغم من دورها القصير في الرواية .

تسهم الصورة الادبية في ابراز الخصائص الفردية التي يتسم بها البطل وفي تبيان خلائقه وشمائله وشخصيته المتميزة وطبائمه . فتعبر الابتسامات او النظرة احيانا عن طيبة البطل وعن جمال خلائقه ورقته ولطفه او العكس . فعيون الاميسره ماري الشماعية تعكس طبيعتها وسموها الروحي والاخلاقي وحياءها وتضفي على وجهها الهادئ مسحة من الجمال والاشراق . ويتجسد لطف بيير وصدقه وطيب خلقه وصفاء روحه في ابتسامته الودية الخيرة .

يفني تولستوي صورة البطل تدريجيا باضافات مستمرة وتفاصيل متباينة بحيث يمكنها ان تستوعب مختلف شمائل البطل وتبين حالته في ظروف متباينة في العائلة وبين الاصدقاء وفي الحرب وفي افراحه واتراحه ولهوه وحزنه . فاول ما يعرفنا تولستوي على ناتاشا بطلقة « الحرب والسلام » اثناء لعبها ومرحها وركضها مؤكدا الصفة الرئيسية التي تميز شخصيتها وهي حيويتها وفيض قوى الحياة في عروقها وتدفقها بفزارة ثم يتوسع اطار صورة ناتاشا تمشيا مع نمو وتكامل شخصيتها ويتضمن العديد من التفاصيل التي تبين طبيعتها الديناميكية .

يوجه تولستوي اهتمامه عند رسم صورة البطل الى تعابير الوجه والعيون ونوعية الابتسامات او الحركة ، انه لا يعنى بلون العيون وتقاطع الوجه الا بالقدر الذي يظهر الصفة البارزة في البطل ، فعيون ناتاشا السود الواسعة تعكس حيويتها ونضارتها وخفتها ولذلك نلمس تكرارها مرارا . ولاحظ العديد من النقاد هذا الجانب من الصورة الادبية عند تولستوي ويشير احدهم قائلا : « يعتبر تولستوي بحق سيد اللفة في حركات جسم الانسان الذي يملك قوة التعبير اكثر من الكلمات . وليس المهم ما يتكلم ابطل تولستوي وانما طريقة الحركة والنظرات وكيف تعبّر

وجوههم واجسامهم عن افكارهم ومشاعرهم « (٧) ولذلك نلمس عند تولستوي ترجمة مضمون الانسجام او النظرة وتفسير محتواها وكشفها الاحاسيس الحقيقية عند الانسان التي يحاول اخفاؤها وعدم البوح بها ولكن نظرة او التفاتة منه يمكنها ان تفصح عن دخيلة نفسه .

يخط يراع تولستوي لوحة حية ديناميكية للطبيعة فسي حركتها الابدية وتجدها المتواصل وانبعثها المستمر . فعالم الطبيعة نموذج للحياة المتفجرة المناسبة دون توقف او انقطاع ، وكل ما فيها حقيقي وصادق وغير مصطنع . ولذلك تغدو الطبيعة ملاذا للانسان في بحثه عن التوافق والخير وفي مثابته على التخلص من الشوائب الخلقية والادواج النفسية وفي سعيه نحو اصلاح ذاته . فالطبيعة بتجسيدها للنشاط والقوة والتناسق توحى للانسان افكارا سامية ومثلا عالية وتخلع عليه روحا من الامل والسرور والتفاؤل والثقة وتشفيه من الياس والتشاؤم والاندحار . ومن هنا نلاحظ ان موضوع الطبيعة ذو صلة وثيقة بالانسان ، فهو مرتبط بمشكلة البطل وارائه الفلسفية وابحائه الفكرية وتوفقه لتحسين ذاته وهمومه اليومية وتفتيشه عن الخير ووجهه للجمال . كل هذا يجد صدها في الطبيعة اذا وجد الانسان نفسه بين احضانها ، عندئذ تختلط احلامه والامه بها ويتجاوب معها ثم يمتزجان معا . ويفصح تولستوي عن رايه بالطبيعة والعلاقة القائمة بينها وبين الانسان في يومياته قائلا : « احب الطبيعة عندما تحيطني من كل الجهات وعندما تترامى بعيدا نحو الافق اللامتناهي وعندما تحتويني ويفرني هواء حار يتصاعد نحو الاعالي اللامتناهية ، وعندما ينمو باستمرار ذلك العشب الريان الذي وطانه اثناء جلوسه عليه وهو يخلق الخضرة في المروج الترامية وعندما تلقي تلك الاوراق التي تلوح الرياح ظلالتها على وجهي كاسية الغابة لونا ازرق واحيها عندما يكون الهواء الذي انتفسه اشبه شيء بالسما اللامتناهية الفامقة الزرققة وعندما لا اتمتع وابتهج وحدي بالطبيعة بل تطن وتضج الحشرات من حولي وتسير الابصار وتصدح العصافير » .

لا يضيف تولستوي على الطبيعة صفة معينة ولا يسوها لونها خاصا ، بل يرسمها على حقيقتها احيانا . انه يجهل في تصوير الجوانب الباهتة والساطعة ، الفوضى والانسجام ، الهدوء والغضب . ولذلك يلوح من صفحات رواياته حسن الربيع وطراوته واشراقه وقيظ الصيف وشحوب الخريف وعواصف الشتاء وبسره القارص وشاعرية الليالي القمرية وروعة المناظر الجبلية وجلالها وسحر النجوم ودفء الشمس وعبوس الصيوم وعويل الريح .

تخلل مناظر الطبيعة كتابات تولستوي في السنوات الخمسين والستين بوفرة ، حيث يزور ابطاله الريف على الغالب للراحة والتمتع بجمال الطبيعة او لقضاء بعض الامور المتعلقة باعمالهم الزراعية . ولذلك تمتاز صور الطبيعة في هذه الفترة بمحتواها الفني وتنوعها . اما في روايتي « انا كارنينا » و « البعث » فالمناظر الطبيعية قليلة ومقتضية واسلوب انعكاسها واحد . وتفسير ذلك ان ابطل هاتين الروايتين والقصص المتاخرة يعيشون بصورة رئيسية في المدينة بعيدا عن الريف .

تتلون الطبيعة في « انا كارنينا » بلون فلسفي وتصبح احيانا رمزا للتغيرات التي تحدث بعد ذلك في مصائر ابطالها والتحولات التي تطرأ على حياته . وتسري قوانين الطبيعة وديالكتيكها على حياة الانسان فاحكام تطورها واحدة . فكما يمكن ان تتبدل الطبيعة وترتدي اثوابا متعددة في فترات مختلفة فكذلك يمكن ان يحدث الشيء نفسه بالنسبة للانسان . ان ليفين يشعر بانبعائه الروحي وتجدد قواه الفكرية والخلقية عند عبوره على اسس فلسفية جديدة . ويجد صدى التغيير الذي طرأ عليه عند تسريحه نظره الى السماء فيقول « تطلعت قبل فترة الى السماء ولم ار فيها غير خطين ابيضين . اجل هكذا تغيرت دون شعوري

ارائي في الحياة » . ويوحى تأمل ليفين للسماء واختفاء النجوم « وظهورها في اماكنها ثانية » ان هدوء العالم الداخلي للانسان يتهاوى على صخرة الواقع المر ولكن لا يتلاشى نهائيا فكما تختفي النجوم مؤقتا كذلك قوى الانسان الروحية تصاب بالوهن حينما وينتابها القلق تسم تنتعش مرة اخرى وتعود لحالتها الطبيعية . ان السماء لا تعبر عن وحدة الانسان والطبيعة وانما توضح حالة ليفين النفسية المضطربة ، وكونها ظاهرة مؤقتة وليست ملازمة له .

الطبيعة في كتابات تولستوي متقلبة ، تصطبغ بوضع الانسان النفسي في لحظة معينة فتكون ضاحكة مشرقة اذا كان سعيدا وكئيبة حزينة اذا كان باسنا وصافية نقية اذا كان يبحث عن الخير والنقاء . فهي ليست عالما قائما بذاته منفصلا عن عالم الانسان بل متفاعلا معه وامتزجا به .

يسمى تولستوي للامام بحياة البطل من جميع اطرافها ويعرض نموها الطبيعي من الداخل متقبلا وكاشفا المشاعب والواصر بين عالم الوعي واللاوعي وانعكاسات احدهما على الآخر . ان الاحلام احد المجالات التي تنعكس فيها هموم البطل وخواطره والاضاع العصبية التي تمر به . ويتنوع تولستوي عملية ظهور مشاغل البطل في الاحلام والطرق اللثوية التي تتخذها والعلاقات الرمزية التي تتوارى وراءها وصيرورتها في القسم النهائي من الحلم وانتقال النائم من حالة اللاوعي الى الوعي . كان تولستوي شغوقا منذ البداية بتحليل الاحلام وتفكيكها الى اجزائها المتكونة منها وتفسير معانيها وحل رموزها وفهم محتواها وتحديد مكانها واهميتها في استبطان افكار الانسان . وقد وجد تولستوي ان الحلم يتكون من الانطباعات الخارجية التي تتراكم في ذهن الانسان والاحداث اليومية التي تؤثر فيه تأثيرا مباشرا وغير مباشر . يشمل العالم الباطني في مجموعة من الانطباعات والاحداث وتظهر في احلام النائم واحلام اليقظة ايضا . وتؤثر نوعية المؤثرات الخارجية على محتوى الحلم ومضمونه . فالاحلام في قصة « تاريخ اليوم الماضي » تحمل طابع بلبله افكار البطل وفوضاها وتداخلها المشوش . وفي قصة « الطفولة » يعمق حلم نيقولينكا فهمنا لطفولته ووجه لوالده . وفي قصة « الصبا » يبين حلم نيقولينكا تطور فهمه للواقع والناس المحيطين به .

تكتسب احلام انا اهمية خاصة وذلك بمصاحبتها لمختلف مراحل حياتها العاطفية منذ اللحظة التي التقت فيها بفرونسكي حتى انتحارها . ويسود احلام « انا » جو من التنبؤ بالاحداث المقبلة في حياتها ولا سيما الهامة منها . فلو امعنا النظر في الحلم الاول الذي رآه عندما كانت في الفطار عائدة من موسكو الى بيتها في بطرسبورغ لوجدنا انه يسجل بداية التغيير العاطفي الذي بدأ يشق طريقه الى الوجود والذي لا زال جنينا في دور التكوين . وسيؤدي انبثاق الحب في قلبها الى تدشين مرحلة جديدة عاصفة في حياتها . ولا تكاد انا تدرك عواقب لقاءها مع فرونسكي في موسكو وما سيرتب عليه من احداث جسام . وتتجلى احاسيس انا الفامضة وعدم تكهنها بفداحة ما جرى لها في هذا الحلم الذي تمهد له ذكرياتها عن عائلتها وحياتها في بطرسبورغ .

يعكس الحلم الثاني الذي رآه بعد ان كاشفها زوجها بموضوع علاقتها بفرونسكي الصراع الداخلي الذي تعاناه والمآزق الحرج الذي تمر به وانعدام الامل بالخروج منه . انها تنتظر فرصة زوال اضطرارها وعودة الهدوء الى نفسها لكي تفكر بوضعها بمجملة تقول لنفسها « لا . لا استطع الآن التفكير بهذا ، وساتركه فيما بعد عندما اكون اهدا . ولكن لم يبق لها اضطرار افكارها ابدا ، وكلما انطرح امامها قضية ما فعلته وما هو مصيرها وما عليها ان تعمل بتملكها العرب وتطرد هذه الاسئلة من ذهنها » . ان الحيرة والانزعاج يعودان الى المستقبل الضبابي الفامض لعلاقتها بفرونسكي والتغيير بوضعها يرهبا ويلقي ظلالا سودا على حياتها وتري كل شيء بمنظار قائم . ان القسم الاخير في الحلم الذي يراودها كل يوم في نومها عبارة عن تنبؤ لما سيحدث لها عند الولادة حيث تصاب بالحمى وتصبح على قاب قوسين من الموت

وتطلب من عشيقها وزوجها ان يتصالحا .

## دار العودة - بيروت

### آخر منشوراتها

### ارم وطلب انتساب للحزب

الديوان الاول لشاعر المقاومة الفلسطينية

سميح القاسم

### احزان افريقيا

مسرحية شعرية رائعة

للشاعر الكبير محمد الفيتوري

### اغنية الى يافا

الديوان الثاني للشاعر المبدع

سيد احمد الحدلو

### عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني

دراسة طويلة عن ادب الارض المحتلة كتبها

شاعر المقاومة توفيق زياد

### قرقاش

اول مسرحية شعرية

لشاعر المقاومة الفلسطينية سميح القاسم

### معزوفة درويش متجول

ديوان للشاعر محمد الفيتوري

تطلب جميع هذه الكتب من دار العودة - بيروت

شارع مار منصور ، بناية بنك بيروت

والبلاد العربية ، تلفون ٢٣٦٤٠٧

اما حلمها الثالث والاخير فيرمز الى نهاية حياتها الاليمة والسي استسلامها لليأس . فهي ترى ان الموت وحده يضع حدا لعذابها الدائم ووضعها المستعصي على الحل . ويتكرر هذا الحلم باستمرار مؤكدا لها ان ستارا رهيبا سيسدل على حياتها . وقد وضع لها هذا ايضا بعد برود فرونسكي وعدم استطاعتها العودة الى زوجها والميش كالسابق ولهذا كانت دائما في حالة تهييج وتوتر عصبي . يتراءى لانا ( فلاح ذو لحية صغيرة وتود ان تستيقظ من الرعب . واستيقظت من حلمها واخذت تسال نفسها ما معنى هذا الحلم . وقال لها الفلاح « بالولادة .. بالولادة .. ستوتين بالولادة يا اماه . » ! ان احلام انا تأخذ شكل الكوابيس الرهيبه وتعكس ما تعانیه في حياتها اليومية من قلق وحيرة ومصير مجهول .

لا يقتصر تولستوي على تصوير العالم الداخلي للفرد فحسب ، بل يتعداه الى تصوير الحالات النفسية لمجموعات من الناس بكاملها . وتبرز براعة تولستوي في هذا الضمار خاصة في قصص سواستبول وفي رواية « الحرب والسلام » حيث يصور الجنود في انتظار الحرب والموت المرتبط بها . ففي ليلة معركة بورودينو وهي المعركة الحاسمة مع نابليون والتي قتل فيها خمسون الف جندي يصور تولستوي شجاعة الجنود وبسالتهم وعدم خوفهم من الموت وترقبه بهدوء بالغ كما لو كان من الاحداث اليومية العادية .

طرا شيء من التغيير على اسلوب تولستوي بعد كتابة رواية « انا كارنيئا » نتيجة التحول الفكري الذي حدث في حياته في سنوات الثمانينات . فقد اخذ يدعو لاصلاح الانسان لذاته والى التصمس بالمبادئ الاخلاقية العالية . ولذلك اشتدت لهجة النقد لدرجة تتخذ احيانا شكل الهجاء في كتاباته واصبح نقد الاوضاع القائمة محور كتاباته وقويت الدعوة للاخلاق والتخلص من الاخطاء . وتتميز كتاباته الاخيرة ولا سيما رواية « البعث » ان الابطال تبدأ حياتهم بازمة فكرية او روحية يعون على اثرها عبث حياتهم الماضية . ففي رواية البعث تظهر الانارة الفكرية للبطل عند رؤية ضحيتته والمأساة التي سببها لها . وتظهر عند بطل قصة « ايفان البتشي » عندما يشتد به المرض ويعرف مصيره المحتوم ولا يستطيع تسوية ما فات والبدء بحياة جديدة . وهكذا يتعاقب في إنتاج تولستوي الاخير موضوعان ، النقد الشديد للحياة الماضية والحاضرة والانارة الروحية والفكرية للبطل التي تأتي اثر هزة او انقلاب فكري .

ان تولستوي لا يتخلى عن طريقته في تحليل النفس البشرية بل انها تلازم اسلوبه في هذه الفترة ايضا وبستخدمها لتصوير الصراعات النفسية الحادة التي تملك البطل في نضاله بين ما فيه وما اعتاد عليه وبين ما يصبو اليه من قيم فكرية واخلاقية .

بغداد

### حياة شرارة

لجميع مطبوعاتكم :



بيروت - تلفون : ٢٣٠٥١٢